القسم التاريخى

٢ — مظاهر الوحدة فى العصور القديمة

أرسل الله ذلك النهر الكريم من قلب افريقية ، متخذا طريقه نحو الشمال حتى بلغ بحر الروم، يحمل الحياة بين يديه إلى تلك الأجيال المتعاقبة من أناس وحيوان وطير . وشاءت الطبيعة أن تجعل من ذلك النهر وريدا من أوردة الحياة فى القارة الافريقية، جمع بين قلبها فى أعالى السودان وأطرافها عند شواطئ بحر الروم ثم ربط بين شقى الوادى مصره وسودانه برباط لاتنفصم عراه، وهو سيظل كذلك إلى أن يأذن الله فتتبدل الأرض غير الأرض . ولقد أسمى المؤرخون القدماء سودان الوادى من الشلال إلى الخرطوم أثيوبيا ، وأسماه المصريون أنفسهم الأقاليم الجنوبية، وفى ذلك ما يشير إلى أنهم عدوها ضمن أقاليم واديهم .

تلك حقيقة أوجدتها طبيعة الخلق والحياة فى القارة الافريقية ، وفطن إليها رجال التاريخ الذين كتبوا فى تاريخ الوادى وفى مقدمتهم البريطانيون ، فهذا أديسون Addison يقول[١] :

"ارتبط تاريخ السودان دائما بتاريخ مصر ارتباطا قويا كان أو ضعيفا" .

وهذا ريسنر Reisner يقول :

(ا) "ولما كانت مصر تتصل بوسط افريقية عن طريق اثيوبيا فقد أصبح تاريخ هذا الإقليم لايمكن فصله عن تاريخ مصر، كما أن ذلك التاريخ لايمكن فهمه إلا على ضوء تاريخ مصر ، جارة اثيوبيا الكبرى من ناحية الشمال" [٢] .

(ب) "منذ أقدم العصور تعارف المؤرخون على اعتبار تاريخ اثيوبيا ملحقا بتاريخ مصر"[٣] .

ثم انظر إلى قول المؤرخ البريطانى بدج Budge[٤] :

"والواقع أن السودان اعتبر منذ العصور القديمة امتدادا لمصر" .

ولقد ساعدت عوامل الطبيعة أهل الشمال منذ قومتهم على بناء الحضارة ، فاندفعوا فى ركابها بخطى واسعة سريعة ؛ بينما بقى أصحاب الجنوب على حالهم من البداوة الأولى[٥] وغشيتهم الحياة

---

(١) Archaeological Survey of the Sudan, p. 21, in "The Anglo-Egyptian Sudan from Within, Edited by Hamilton, 1935.

(٢) Reisner, in Sudan Notes and Records, 1918, vol. I., p. 4.

(٣) Reisner op. cit., p. 217.

(٤) Budge, The Egyptian Sudan, vol. I, 1907, p. 526.

(٥) Budge, op. cit., p. 510.

المضطربة أمدا طويلا[١]. ومنذ بجر الإنسانية ونحن نشهد على مرآة حياتها ذلك النشاط العجيب من كفاح المصريين فى البحث عن مقومات الحضارة فى نواحى الوادى ، حيث وجدوا فى شقه الجنوبى كثيرا من الذهب والبخور والعطور والخشب والجلد والماشية والعاج وغير ذلك من محاصيل تلك البقاع الواقعة من وراء الشلال الأول .

وتشير أقدم المخلفات الإنسانية على ضفاف النيل فى شق الوادى إلى وجود الصلات بين أهل الشمال وأهل الجنوب ، فقبور المصريين قد وجدت عند دكة من أقاليم النوبة السفلى قبل عام ٣٤٠٠ ق . م . كما عثر على بعض محاصيل السودان فى مخلفات المصريين التى وجدت فى قبورهم من ذلك العهد[٢] ، كما دلت الأبحاث التاريخية فى عصر بجر التاريخ ، على أن المنطقة التى تقع بين الشلالين الأول والثانى ، قد كانت معمورة بأقوام من جنس المصريين الذين يسكنون شمال الوادى مما يلى أسوان . وكان أهل دنقلة من حول الشلال الرابع من نفس الجنس إلا أنهم اختلطوا بقبائل السودان البعيد التى كانت تتردد على تلك البقاع أو تعيش على بعد قريب منها .

ولما كان بقاء السودانيين على حالهم من البداوة الأولى يعرضهم على الدوام إلى إغارة القبائل المتبربرة الضاربة على أطراف الصحراء من الشرق أو من وراء الشلال الرابع ، فتغريهم بالثورة على قوافل التجارة الطارقة من شمال الوادى ، اضطر المصريون إلى الإكثار من الحملات العسكرية على تلك البقاع ، لتأمين طرق القوافل والمحافظة على سلامة حدود الوادى[٣] .

فلم تكد مصر تستقبل الصبح من تاريخها حتى حمل عاهلها "مينا" على شمال النوبة وكانت أقاليمه تمتد من وراء الشلال حتى إقليم ادفو — حمل عليها ليخمد الثورة وليؤمن حدودها[٤] .

وبين اسناد التاريخ ما يشير إلى أن فرعون مصر " زوسر " رأس الأسرة الثالثة ، قد أخضع القبائل الثورية فى شمال النوبة ، ثم مد حدود مصر إلى الجنوب فبلغ بها بلدة المحرقة من أقاليم النوبة السفلى ، وهناك استطاع أن يوقف من تلك البقاع أملاكا واسعة على معبد " خنوم " رب الشلال وحامى منابع النيل[٥] .

ولما عادت بعض القبائل تستأنف نشاطها الثورى من وراء أيام "زوسر" اضطر خلفه "سنفرو" إلى أن يحمل على تلك البقاع . وكانت حملته موفقة ، عاد منها بكثير من أسرى الزنوج وغنائم الماشية والأنعام ، وكان ذلك فى عام ٢٩٠٠ ق.م . وتشير نتائج تلك الحملة إلى أنها لم تكن موجهة على البقاع الواقعة بين الشلالين الأول والثانى فحسب ، وإنما عدت ذلك إلى بقاع دنقلة ، أو ما وراءها

---

(١) Breasted, History of Egypt, 1946, p. 112.

(٢) Reisner, op. cit., p. 6.

(٣) Reisner, op. cit., p. 13.

(٤) Breasted, op., p, 37; Newberry and Garstang, History, p, 20.

(٥) Breasted, op. cit., p. 112.

من الوديان التى تكثر فيها المراعى والزروع وتنتشر فيها الماشية والأنعام [١] . ولن يكون فى حملة كهذه ما يشير إلى عمل عدائى ، وإنما كانت رغبة الرجل صادقة فى إقرار السلام ونشر الأمن وتوطيد العلاقات بين القطرين. وليس أدل على ذلك من أنه قد زوج أحد أحفاده بأميرة من نساء النوبة كما تشير إلى ذلك رسوم قبره [٢] ، وما ندرى على وجه التحديد أكانت تلك الأميرة من إقليم دنقلة أو مما وراءها من بقاع ، فليس يهمنا ذلك فى كثير. وإنما الذى يهمنا حقا هو أن العلاقات بين شتى الوادى لم تقم يومئذ على فكرة الاستعمار والإذلال ، وإنما قامت كلها على أسس من الود والقربى. وكانت أغراض المصريين ظاهرة فى تأمين سلامة الوادى وتوكيد العلاقات بمختلف الوسائل الإنسانية ، قام فيها أصحاب الشمال بدور الأخ الأكبر الرشيد ، لأن الطبيعة كانت قد مكنت لهم فى سبل الحضارة والتقدم ، وأتاحت لهم من وسائل المدنية ما لم يتح لاخوانهم فى جنوب الوادى .

وتستمر العلاقات قائمة بين شتى الوادى كما تشير أكثر الصور والرسوم على آثار الأسرتين الرابعة والخامسة [٣] . وعلى الرغم من اضطراب الأحوال السياسية فى أوائل أيام الأسرة الخامسة وأواسطها ، لم يفت ملوكها أن يلتفتوا إلى أقاليم الجنوب. يشير إلى ذلك تسجيل اسم فرعون مصر " أو سركاف " على صخور النوبة [٤] ، كما أنفذ خلفه "ساحورع" أسطولا إلى بلاد " بنت " عاد منها محملا بمقادير ضخمة من مخلوط الذهب والفضة ، ومن خشب الأبانوس ، والبخور والعطور وكانت من مستلزمات إقامة الطقوس الدينية فى المعابد المصرية . ومن المرجح أن المصريين قد كانوا يقومون بمثل تلك الحملات منذ عهود التاريخ الأولى ، لذيوع استعمال البخور عندهم وقتئذ . وجائز أيضا أن تكون مثل تلك المحاصيل قد كانت تنقل إليهم عن طريق رجال القوافل يحملونها إلى مصر من مناطق النيل الأزرق والعطبرة وأعالى النيل . وعلى أى حال كانت بعثة "ساحورع" هذه إلى بلاد "بنت" أول بعثة مصرية إلى تلك البقاع النائية دونت أخبارها على الآثار المصرية [٥] . وفى أيامه سجل رجاله أوفى قدر من المخلفات الكتابية والرسوم على صخور النوبة مما يشير إلى كثرة ترددهم على تلك البقاع [٦] .

كذلك تشير " متون الأهرام " عند المصريين من الأسرتين الخامسة والسادسة — وهى أقدم ما يعرف من آدابهم الدينية — إلى أنهم قد كانوا يعتبرون النوبة جزءا لا يتجزأ من مصر ، فهم قد جعلوا معبودها " ددون " ضمن معبوداتهم المصرية [٧] .

---

(١) Reisner, op. cit., p. 6; Breasted, op. cit, p. 115.

(٢) Reisner, op. cit., p. 7 (Mastaba G4440).

(٣) Reisner, op. cit., pp. 7-8.

(٤) Mariette, Monuments div., 54 e.

(٥) Breasted, op. cit., pp. 127-128.

(٦) Breasted, op. cit., p. 128.

(٧) Budge, op. cit., vol. I, p. 526.

وظاهر أن ملوك الأسرتين الخامسة والسادسة قد اهتموا كثيرا بجنوب الوادى، فبعثوا إلى أقاليمه بكثير من الحملات التى بلغت الصومال ودارفور والكونغو. ومن المرجح أن كثيرا من القبائل المصرية قد نزلت بقاع السودان ومن بينها "شندى" إلى الشمال من الخرطوم.

ولما كانت أيام الأسرة السادسة، فكر ملوكها فى ارسال بعثات للكشف والتجارة إلى قلب أفريقيا. وقبور الرحالة المصريين من أمثال "خوف حور" ومن إليه، ما زالت بادية فى صخور أسوان عن يمين الوادى، وأخبار رحلاتهم مسجلة على صفحات تلك القبور، تحدثنا عما سلكوا من شعاب وارتادوا من وديان ودروب، وعما شقوا من طرق، وما لاقوا فى سبيل ذلك من أخطار، ثم ما حملوا من خيرات تلك البقاع إلى قصر فرعون.

ولعل "خوف حور" أن يكون أشهر الرحالة المصريين فى ذلك العهد، بل لعله أن يكون إمام رحالة الدنيا جميعا. جاء فى أخباره أنه قام بأربع رحلات موفقة الى قلب أفريقية، وأنه كان يسلك فى كل مرة طريقا غير التى سلكها من قبل، ليفتح طرقا جديدة وليرى بلادا أخرى. بدأ فى رحلته الأخيرة من شاطئ النيل الغربى تجاه أسوان، وسار يحاذى النيل مصعدا حتى بلغ وادى حلفا، ثم سلك الدرب الموصل إلى واحة سليمة، ومن ثم ركب درب الأربعين المعروف حتى بلغ دارفور، ثم توغل فبلغ كردفان ثم الكنغو حيث يعيش قبائل الأقزام فى غابات الزنوج من قلب أفريقية. ومعروف أن القوافل التى تقطع الطريق بين اسوان ودارفور تتوقف عادة لتستجم على آبار الماء مدة تتراوح بين أربعين وخمسين يوما، ثم تستأنف مسيرها من دارفور إلى الكنغو فتبلغه بعد عشرين يوما. على أن الوقت الذى استغرقته كل رحلة من رحلات "خوف حور" لم يقل عن سبعة أهلة وهى مدة كافية للاقامة المطمئنة فى تلك البقاع واستطلاع شؤونها ودراسة أحوال سكانها.

ومن ذلك نرى أن القارة الافريقية الغامضة كما يسميها علماء الجغرافية، والتى اتعبت الرحالين من أهل أوروبا فى مطلع القرن التاسع عشر، حينما سلكوها للكشف عن منابع النيل، لم تكن غامضة على قدماء المصريين، وأن ما قدر لامثال لفنجستون واستانلى وغيرهما أن يروه فى صدر القرن التاسع عشر، قد رآه "خوف حور" وأمثاله من المصريين قبل أربعة آلاف عام. ولا غرابة إذاً فى أن يفخر الرجل وأمثاله بأعمالهم هذه وما أصابوا فيها من نجاح وتوفيق، كما افتخر أهل أوروبا وأمريكا برجالهم وأشادوا ببطولتهم.

ويقدر المؤرخ البريطانى بدج Budge أن رحالتنا المصرى قد بلغ شمال دارفور على النيل الأبيض أو إقليم سنار على النيل الأزرق، كما يرى ريسنر Reisner أن توغل المصريين على العموم فى عهد الدولة القديمة لم يعد إقليم سنار.

ومنذ أيام الدولة القديمة نسمع بسلطان حاكم الجنوب يدير شؤون أقاليمه من ادفو إلى أقصى ما بلغ المصريون من جنوب الوادى، وكان مقره فى جزيرة فيله، وكان يختار من رجال الدولة

القادرين ، الذين يلمون بلهجات القبائل السودانية ، ليكون بمثابة حلقة الوصل بين أهل الشمال وأهل الجنوب فى تدبير كافة شؤون التجارة والادارة والسياسة ، وليجند من عسكر الجنوب من يمثلهم فى وحدات الجيش المصرى. وأخذ المصريون بذلك التقليد من استخدام عساكر السودان فى كل عهودهم وخصوصا من بين قبائل " المازوى " وكانوا من أمهر الناس فى فنون الرمى حتى أصبحت كلمة " مازوى " علما على المحاربين فى بعض العصور المصرية . وشبيه بذلك ما جرت عليه الحكومات المصرية فى ذلك العصر الحديث من استخدام العساكر السودانية (فرق الهجانة) لحراسة الحدود والمناطق الصحراوية — وإلى جانب ما ذكرنا من أخبار الرحالة وحكام الجنوب ، أخبار أخرى خلفها قواد القوافل التجارية التى ارتادت تلك البقاع ، مما يدل على اتساع مدى النشاط التجارى بين مصر والسودان خلال الألف الثالث ق . م .

من كل أولئك يتضح لنا ، أن العلاقات بين مصر والسودان قد استقرت تماما على عهد الدولة القديمة ، حتى باتت أقاليم السودان من مكملات الدولة المصرية كما يقول المؤرخ البريطانى بدج Budge . ولم تقف جهود حكام الجنوب عند أقاليم السودان ، وإنما عدت ذلك إلى العمل على تنمية العلاقات التجارية مع بلاد بنت .

ولما اضطربت أمور مصر فى أواخر أيام الدولة القديمة ، وأصيبت بالانحلال السياسى ، أهمل شأن الجنوب ، وكان من جراء ذلك أن أغارت قبائل الزنوج على السودان الشمالى وغابت أهله على أمرهم . ثم شاء الله أن تنهض مصر من وراء ذلك على يد شيخ من أبناء الصعيد ، ولد فى مدينة الكاب من أعمال أقاليم الجنوب ، وكانت أمه من نساء النوبة . وكان الشيخ هو " امنمحات " الأول عاهل الدولة الوسطى الذى أقام أسرته فى عام ٢٠٠٠ قبل مولد المسيح ، وولى وجهه شطر الجنوب ، وأخذ يؤمن حدوده ، ويعيد إليه استقراره . وسار ولده " سنوسرت " على نهجه من بعده ، فبعث بحملات إلى بلاد النوبة ودنقلة ليطهرها من الفتن وليؤمن حدودها من عدوان المغيرين ، وقاد إحداها بنفسه عام ١٩٦٣ ق . م ثم ترك قائده يتحدث الى الدنيا عن أخبار تلك الحملة . إذ يقول « إنه اخترق أقاليم كوش (ما بين الشلالين الثانى والثالث) وسار مصعدا حتى بلغ أقصى حدود الوادى ، فجمع خراج الأقاليم لفرعون ثم كر راجعا فى ركابه . هنالك أقام فرعون كثيرا من القلاع والحصون فى المواقع الحربية ، وعلى أبواب الدروب الموصلة الى مناجم الذهب فى أقاليم النوبة والسودان ، وفى المناطق التى يضيق فيها مجرى النهر مثل سمنه وقمة جنوبى حلفا ، وفى مواقع أخرى هامة مثل كرما فى إقليم دنقلة . وأنزلت فى تلك الحصون حاميات من عساكر الجيش المصرى ، فأكثرت من حولها على مر الزمن منازل المصريين يقيمون فيها ويزاولون أعمال التجارة والصناعة وفلاحة الأرض وينشر خاصتهم من ألوان الحضارة والثقافة المصريتين بين أهل السودان ما يعرفون . وغدت كرما عاصمة لحاكم الجنوب يدير منها شؤون البلاد وتعيش من حوله كثير من الأسر المصرية . وظل السودان هادئا واستقرت أحواله السياسية أكثر من ثمانين عاما ، إلى أن ثارت بعض القبائل السودانية بمعونة الزنوج . وانتهى أمر ذلك إلى القصر ، فخرج فرعون وهو حينئذ سنوسرت

الثالث على رأس الجيش عام ١٨٧٩، فضرب العصاة وطهر البلاد من آثارهم ورد عليها نعمة الهدوء والاستقرار، ونظم الإدارة، فوضع لها قواعد واساليب جديدة، ثم دعم الحصون القائمة وأمر بتشييد غيرها، وشق فى صخور الشلال الأول قناة لتيسير مرور السفن بين شطرى الوادى. وترك فى الحصون ألواحا تذكارية دون عليها جهوده، وأوصى فيها خلفاءه بالمحافظة على حدود الوادى جاء فيها: «إن امرأ من ولدى، يستطيع أن يحافظ على تلك الحدود لهو ابنى من صلبى، انه يشبه أباه ويصون ملك من أنجبه. فأما من قعد عن ذلك، ولم يذد عن حياضى فذلك ليس من ولدى. إن هذا تمثالى أقيمه لكم على الحدود عله أن ينفعكم فذودوا عنه".

يعد ذلك الفرعون صاحب السودان بحق، فعلى عهده استقرت الأمور وانتشرت المعابد لأرباب البلاد وعلى الأخص "آمون" الذى ظل رب أرباب الوادى زهاء خمسة عشر قرنا، وهنا يقول برستد "تمصرت بلاد النوبة وانطبعت بطابع الحضارة الفرعونية انطباعا لم يمح"[1].

ثم تدور دورة الفلك وتصاب مصر بنكسة من نكسات الانحلال السياسى فيجتاحها الهكسوس، ثم تنهض من وراء ذلك على يد أمراء من إقليم طيبة، استعانوا فى جهادهم ضد الهكسوس بعساكر من رجال النوبة، ثم وفق أحدهم وهو أحمس الى إجلاء الهكسوس. وهو لم يكد يفعل حتى طار نحو الجنوب، ليرد على الوادى وحدته بعد أن أدرك أن الحياة المصرية تبقى مبتورة عرجاء ولن يتم لها الكمال بغير السودان. وخلفائه من ملوك الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة جهود جبارة موفقة معا فى المحافظة على كيان الوادى والعمل على رفاهية مصره وسودانه، فأنزلوا كثيرا من الأسر المصرية أقاليم السودان كما أكثروا من دور العبادة المصرية وعلى الأخص آمون رب أرباب الوادى الذى أسموه صاحب أقاليم الذهب، كما خلعوا على نائب الملك لقب أمير بلاد الذهب. وليس أدل على اهتمام قراعنة الأسرة الثامنة عشرة بالسودان وتقديرهم لجهود من تقدموهم فى العمل على توطيد أركانه من أنهم امروا بعبادة سنوسرت الثالث صاحب السودان الأول، كما عبد خلفه رمسيس الكبير فى معابد السودان بعد ذلك بقرون.

ومنذ عهد فرعون أمنوفيس الأول (١٥٥٠) ونحن نسمع بسيرة حاكم الجنوب ينوب عن فرعون فى ادارة السودان ويحمل لقب "ابن الملك وحاكم السودان" وجعل عرشه فى "نباتا" على شاطئ النيل، فى المكان المعروف اليوم باسم "جبل بركال" على مقربة من محطة كريمة.

ولقد كان نائب الملك (حاكم السودان) يحج الى مصر فى كل عام، فيقصد الى طيبة عاصمة الوادى يومئذ ومن حوله زعماء العشائر ووجهاء السودان لتقديم الخراج والهدايا ولتقديم فروض الولاء لفرعون. ومظاهر تلك المواكب مسجلة على صفحات القبور فى طيبة، وهى تشير جميعا الى مقدار ما أصابت حياة السودان من تقدم فى شئون الحياة المختلفة.

---

(1) Breasted, op. cit., p. 446.

واستطاع الرعامسة أن يحافظوا على كيان الوادى ، وأصابت حياة السودان على أيامهم أكبر قسط من التقدم، ونزحت كثير من الأسر المصرية إلى السودان، كما نزحت أسر سودانية إلى مصر و بلغ بعض رجالها أرفع مناصب الدولة، كما ساهموا فى وحدات الجيش المصرى يسيرون مع إخوانهم من المصريين تحت راية فرعون إلى أقطار الأرض و جزائر البحر، ليقيموا له أول امبراطورية عرفها تاريخ الدنيا. وليس أدل على رفاهية السودان فى ذلك العهد من شهادة المؤرخ برستد، إذ يقول فى حديثه عن رسوم قبر من يدعى "بنو" أحد رجال رمسيس السادس فى أبريم :

" ساد الأمن والرفاهية تلك الربوع تحت إمرة المديرين المصريين الذين حلوا محل الأمراء الوطنيين عند نهاية عهد الأسرة الثامنة عشرة[١] " .

والواقع أن السودان قد أصبح فى ذلك الوقت جزءا لا يتجزأ من مصر، وإلى ذلك يشير ريسنر إذ يقول : " وفى عهد الدولة الحديثة أصبح الوادى من الشلال الرابع جزءا أصليا من مصر"[٢] .

ولما ضعفت امبراطورية الوادى وأذنت شمسها بمغيب، وسيطرت على مصر أسرة ليبية عند عام ٩٤٠ ق.م ، انقسمت مصر إمارات صغيرة وأخذ الأمراء يكافح بعضهم بعضا، والتجأ كهنة آمون إلى السودان لأنهم أبوا أن يخضعوا لسلطان الليبيين ، وأخذوا ينشرون الحضارة فى ربوع السودان، وأقام كبيرهم فى نباتا ملكا جديدا، وجعل من نفسه وارثا شرعيا لعرش فرعون. وظل ذلك الملك ينتقل من السلف إلى الخلف، حتى آل إلى الملك الشاب بعنخى وتراءى له أن يسترجع بقية الوادى من أيدى الغاصبين ، فسار إلى الشمال على رأس جيش قوى، وقدّر له أن يجلى الغاصب عن شمال الوادى، فرد على الوادى وحدته وكان ذلك عام ٧٤٠ ق . م[٣] .

وعلى حد قول برستد، يرينا هذا بشكل أوضح من أى وقت آخر الظروف التى كانت تنشأ على الدوام فى مصر كلما انتاب السلطة المركزية أى ضعف . إذ كان ذلك الضعف يوحى للأمراء المحليين باستعادة استقلالهم بل باغتصاب عرش فرعون تدريجيا دون الاستهداف للمخاطر[٤] . فلم يكن إذن اتخاذ نباتا عاصمة لهذه الدولة الجديدة أكثر من انتقال الملك من أسرة مصرية الى أخرى وانتقال العاصمة من الشمال الى الجنوب. ويبدو أنه قد تبين على مضى الزمن، أنه لم يكن من اليسير حكم دولة النيل من عاصمتها الجديدة فى أقصى الجنوب ، فنقل شاباكا (Shabaka) ثالث ملوك الجنوب مقره وعاصمة ملكه الى طيبه[٥] لتكون مكانا وسطا بين أقصى الشمال وأقصى الجنوب .

---

(١) Breasted, op. cit., pp. 507-508.

(٢) Reisner, op. cit., p. 237.

(٣) Breasted, op. cit., pp. 35-36.

(٤) Breasted, op. cit., pp. 537 ff.

(٥) Reisner, op cit., vol. II, p. 48.

وعندما غزت أشور مصر فى عهد طهراقا(Taharka)خامس ملوك نباتا ، ولم يستطع هذا الملك صد الزحف الأجنبي عن شمال مملكته ، انسحب جنوبا تاركا الدلتا تحت رحمة الأشوريين[١] . وما كاد أشورحادون (Esarhaddon) ينسحب الى نينقه ، بعد أن أقسم له أمراء الدلتا يمين الطاعة ، حتى بادر أولئك الأمراء الى الحنث بيمينهم للقاهر الأجنبى ، ودعوة فرعونهم الوطنى "طهراقا" لاستعادة سيطرته على الدلتا ، فلم يتوان طهراقا عن الاستجابة الى دعوتهم[٢] . وعندما عاودت أشور فتح مصر للمرة الثانية فى عهد طهراقا وكاد يتكرر ثانية ماحدث من قبل ، ألقى القبض على أمراء الدلتا . غير أن الأشوريين لم يلبثوا أن عفوا عن "نخاو" ، أمير سايس ، وأقاموه حاكما على الدلتا وأحاطوه برجال أشوريين ، فحال ذلك دون افلاح طهراقا فى استعادة الدلتا ، لكن بقية الوادى جنوبى ذلك استمرت تحت سيطرته[٣] . وعندما نجح تنتمون(Tanutamon) خليفة طهراقا فى غزو الدلتا ونصب نفسه فى منف فرعونا على مصر بأجمعها ، أثار عليه ذلك "أشور بانيبال" الذى غزا مصر ثانية عام ٦٦١ ق . م وطارد تنتمون فى الوجه القبلى ، مما حدا به الى الانسحاب الى أقصى الوادى ، فكان ذلك خاتمة سيادة نباتا على شمال الوادى[٤] .

واذا كان منذ ذلك الوقت لم يتح لملوك الدولة المصرية فى الجنوب استعادة الشمال ، فانه لم يتح أيضا لملوك الشمال ، سواء من أبناء البلاد الأصليين كملوك العصر الصاوى[٥] أو من غزاتها الأجانب كالفرس[٦] والبطالمة[٧] والرومان[٨] استعادة الجنوب ، وذلك بالرغم من المحاولات التى بذلها فى هذا السبيل ابسماتيك الثانى وقمبيز وبطلميوس الثانى . ولا ريب فى أن هذه المحاولات — بغض النظر عن نتائجها — تنهض دليلا على أن حكام مصر مهما اختلفت أجناسهم والعصور التى تولوا الحكم فيها كانوا يرون أن جنوب الوادى جزء متمم لشماله .

وما دام الجنوب يهم الشمال الى هذا الحد ، فكيف نفسر عدم تحقيق الوحدة السياسية بين شقى الوادى منذ العصر الصاوى حتى نهاية العصر الرومانى ؟ يجب أن يلاحظ أولا ، أنه منذ العصر الصاوى أخذت مصر تولى وجهها شطر البحر الأبيض المتوسط ، بتأثير مانشأ بين ملوكها والإغريق من علاقات لم يؤد كر السنين وتعاقب الأجيال الا الى توكيدها . وقد كانت لملوك العصر الصاوى صلات وثيقة بالإغريق ، هذا الى أنهم كانوا أضعف من أن يسيطروا على مملكة الجنوب ، بل من أن يصدوا عدوان الفرس عن مملكة الشمال . أما فى العصرين الفارسى والرومانى ، فإن مصر لم تعد عندئذ وحدة سياسية مستقلة تدير شئونها وترعى مصالحها وتستهدف تدعيم كيانها ؛ وانما

(١) Breasted, op. cit., p. 555 ; Reisner, op. cit., p. 49.
(٢) Breasted, op. cit., p. 556 ; Reisner, op. cit., p, 51.
(٣) Breasted, op. cit., pp. 557-8.
(٤) Breasted, op. cit., pp. 558-60.
(٥) Breasted, op. cit., pp. 561-585.
(٦) Budge, op. cit., vol. II, pp. 91-5.
(٧) Budge, op. cit., pp. 109 ff ; Diod. 1, 37 ; Theocritus, Idyll XVII, 86 ff.
(٨) Budge, op. cit., pp. 166 ff.

غدت ولاية فى امبراطورية كبيرة لا يعنيها الا الفوز بأكبر قدر من المغانم المباشرة مع أقل قدر من التبعات وتجنب الانحدار بعيدا عن مركز الامبراطورية فى قارة افريقية .

أما فى عصر البطالمة فإن الملوك الفاتحين فى هذه الأسرة قد انصرفوا بوجه عام الى تكوين امبراطورية بحرية لهم حول شواطئ البحر الأبيض المتوسط الشرقية وبحر ايجه ، مدفوعين الى ذلك بعدة عوامل ، أهمها ظروف النضال مع خلفاء الإسكندر الأكبر على اقتسام الأمبراطورية المقدونية ، وطبيعة أصلهم ونشأتهم ، وما بينهم وبين الإغريق من الوشائج حتى انهم جعلوا أكثر اعتمادهم على الإغريق فى تشييد صرح دولتهم ، وتقديرهم أن امبراطورية تتألف من أقاليم تمت بصلة الى الحضارة الإغريقية وتقع بالقرب من مراكز هذه الحضارة تكون أبقى لهم على الدهر ، وأجدى عليهم ، وخير نصير لهم فى تحقيق ما كانوا يهدفون اليه من لعب الدور الأول فى سياسة البحر الأبيض المتوسط الدولية . ولا ريب فى أنهم قد استشعروا أن مكانتهم الدولية — فى عالم تعتبر فيه الحضارة الإغريقية أرفع الحضارات طرا — كانت تتوقف الى حد كبير على ظهورهم فى ثوب رافعى لواء الحضارة الإغريقية ، بخلع مسحة ولو ظاهرية من هذه الحضارة على دولتهم . واذا كان ذلك ميسورا فيما يخص مصر ، فقد كان ضربا من المحال فيما يخص كل وادى النيل . ولعل البطالمة أن يكونوا قد قدروا أن تحقيق وحدة وادى النيل ، كان من الممكن أن يحمل فى طياته خطرا داهما عليهم باعتبارهم ملوكا إغريقا أخرجوا من أفق تفكيرهم بناء دولة قومية ، وذلك أن وحدة الوادى بما تنطوى عليه من احياء سيرة الفراعنة العظام ومجد وادى النيل القديم ، قد تفضى الى بعث أمة وادى النيل من جديد ، فيتلاشى فى أرجاء بلادها الفسيحة رسل الحضارة الإغريقية ، ولا يلبث أن يرتقى فرعون وطنى عرش وادى النيل . ومن ثم اكتفى أغلب البطالمة بالمحافظة على سلامة حدودهم الجنوبية ، وعقد أواصر الصداقة مع مملكة الجنوب ، والاهتمام بتجارة الجنوب والشرق وخاصة عن طريق البحر الأحمر . ويتضح ذلك من اهتمامهم بانتاج مصنوعات تتفق وأذواق أهل الشرق والجنوب ؛ ومن ارتياد البحر الأحمر حيث وصل المستكشفون جنوبا حتى رأس غاردافوى (Gardafui)[١] ؛ ومن تأسيس الثغور على شواطئ هذا البحر الغربية من رأس خليج السويس حتى بوغاز باب المندب[٢] ، ومن تأمين الملاحة فى هذا البحر بإنشاء أسطول لحماية التجارة فى تلك الأصقاع[٣] ، وكذلك من إنشاء منصب " قائد البحر الأحمر والبحر الهندى "[٤] ؛ ومن تيسير سبل اتصال وادى النيل بهذا البحر ، كما يبدو من العناية بالطرق المائية والبرية التى تربط الوادى بالثغور المصرية على البحر الأحمر[٥] .

---

(١) Jouguet, L'Egypte Ptolem. dans L'Hist. Nouv. Egyp., publ par Lavisse, vol. III, 1936; Préaux, L'Economie Royale des Lagides, pp. 356-9.

(٢) Jouguet, op. cit., p. 169; Préaux, op. cit., pp. 359-62.

(٣) Jouguet, op. cit., pp. 169-70.

(٤) Rostovtzeff, Social and Economic History of the Hellenistic World, p. 928.

(٥) Jouguet, Macedonian Imperialism pp. 275-6; Bevan, Egypt under the Ptolemaic Dynasty, pp. 151 — 5

ويتضح إذن أن البطالمة قد قدّروا أنه كان يمكنهم الاستغناء عن وحدة وادى النيل بأمبراطوريتهم البحرية و بالعلاقات التجارية التى أنشأوها مع الجنوب والشرق . لكن يبين أن التوفيق قد أخطأهم فى هذا التقدير ، فمن ناحية كلفهم إنشاء هذه الامبراطورية جهودا وأموالا طائلة ، ودفعهم إلى ممالأة الإغريق على حساب المصريين ، واستنزاف موارد البلاد ، واستثارة عداء الكثيرين عليهم .

ومن ناحية أخرى عند ما اشتد ساعد منافسيهم ، وأخذت روما تتسع باطراد فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، فقد البطالمة أمبراطوريتهم البحرية ولم يجدوا فى داخل دولتهم عضدا كافيا حتى للاحتفاظ بملكهم من العدوان الخارجى . وهكذا استنفد البطالمة قوتهم ، وأضاعوا ثروتهم ، فالتهمت روما دولتهم لقمة سائغة .

وخير شاهد على أنه لم يكن لكل من شق الوادى غنى عن الآخر ، ما رأيناه من مصير شمال الوادى بعد انصراف حكامه عن جنوبه ، وما نعرفه من مصير جنوبه بعد انفصاله عن شماله . حقا أن الجنوب قد أفلح فى الاحتفاظ باستقلاله بضعة قرون ، الا أن حضارته أخذت تتدهور باطراد ، كما أن عوامل الضعف والانحلال لم تلبث أن دبت اليه ، حتى راح فى منتصف القرن الرابع ضحية لا للامبراطورية الرومانية المتحضرة ، بل لدولة اكسوم المتأخرة[1] . وفى الواقع أن حالة البداوة التى كان عليها الجنوب قبل انضمامه إلى الشمال ، وحالة الحضارة والرفاهية التى بلغها الجنوب فى أثناء وحدته مع الشمال ، وحالة الهمجية التى آل إليها آخر الأمر بعد انفصاله عن الشمال ، وما يعمل المستعمرون اليوم على تحقيقه من الاحتفاظ بجنوب السودان على ما هو عليه من التأخر ، كل ذلك ينهض دليلا قاطعا على أن جنوب الوادى لا يستطيع أن ينفصل عن شماله إذا كان يرجو لنفسه ما يرجوه الشمال له من حياة متحضرة كريمة .

وقد كان يحز فى نفوس أهل الجنوب ، حتى بعد انفصالهم السياسى عن الشمال ، خضوع أشقائهم فى الشمال للحكم الأجنبى . وأبلغ دليل على ذلك ، وعلى قوة الرابطة بين الفريقين فى الإخاء والحضارة والمشاعر ، أنه عندما انتفض المصريون ثائرين على عسف البطالمة و إرهاقهم ، واشتعلت نيران الثورة فى البلاد من أقصاها إلى أقصاها على عهد بطليموس الرابع والخامس ، مد لهم أهل الجنوب يد المساعدة إلى حد أنه قد تزعم ثورة المصريين فى منطقة طيبة أميران نوبيان ، كانا على التعاقب أرماخيس (Armachis) وأنخماخيس (Anchmachis) ، وأفلحت هذه المنطقة فى الانفصال عن ملك البطالمة فترة دامت عشرين عاما (من عام ٢٠٦ — ١٨٦ ق . م) ، كانت خلالها تحت أمرة الأميرين النوبيين سالفى الذكر ، إذ أن الكثير من الوثائق الديموتيقية التى وجدت فى تلك المنطقة مؤرخة بسنى حكم أرماخيس أولا ثم انخماخيس ثانيا[2] . وتتحدث الوثائق

---

(١) Mac Michael, Historical Background, p. 19, in "The Anglo-Egyptian Sudan from Within"; Addison op. cit., p. 35.

(٢) Préaux, in Chronique d'Egypte, 1936, pp. 531-2.

أيضا عن أمير نوبى ثالث ، يدعى هيرجونافور (Hyrgonaphor) ، هزم الجيش البطلمى وكان يحكم أبيدوس فى عهد بطليموس الخامس فيما يظن [١] .

ويشير ذلك إلى أن أرجامنس (Ergamnes) ، ملك دولة الوادى الجنوبية فى ذلك الوقت وهو الذى يحدثنا ديودوروس الصقلى [٢] بأنه تلقى تعليما أغريقيا ، لم يدخر وسعا فى مساعدة ثورات المصريين على البطالمة . ويحدثنا المؤرخ البريطانى بدج (Budge) [٣] بأن هذا الملك انتهز هذه الفرصة وأعلن نفسه ملكا على الجنوب والشمال ، أى على كل دولة النيل الكبرى .

ومما يستحق التسجيل أن مؤرخا بريطانيا آخر ، "بيفن Bevan"، يحدثنا بصدد الثورات المصرية فى عصر البطالمة على النحو التالى ، "وعند ما نبحث عن العوامل التى تمخضت عن روح هذه الثورة القومية على عهد البطالمة الأواخر ، وخاصة فى مصر العليا ، نقدر أن أحد هذه العوامل العامة ، كان استمرار بقاء التقاليد الفرعونية فى وادى النيل جنوبى مصر ، فان الغزاة الأغريق قد أخضعوا مصر ، لكنهم لم يخضعوا كل دولة الفراعنة القدماء ، كل منطقة الحضارة المصرية . وطالما أن المصريين كانوا يرون تقاليدهم القديمة لا تزال سائدة إلى ما وراء الحدود الجنوبية ، فقد كان طبيعيا أن يأبوا الاعتقاد بأنه قد قضى عليها إلى الأبد . أضف الى ذلك أن القصص القديمة كانت تحدثهم عن ملوك مصريين إحتموا قديما فى اثيوبيا على أعالى النيل ، عند ما دهم الأجانب مصر ، ثم هبوا من هناك لاستعادة الوطن حتى شواطىء البحر" [٤] .

وعند ما غزا الرومان مصر ، هب الوجه القبلى ثائرا فى وجههم بمساعدة اخوانهم أهل الجنوب [٥] وما كادت الفرق الرومانية تصل الى أسوان حتى انقض النوبيون عليها كذلك [٦] . وعند ما علم أهل الجنوب بما صادف "أيوليوس جالوس Aelius Gallus"، حاكم مصر الرومانى فى عام ٢٥ ق.م خلال حملته فى بلاد العرب ، انتهزوا هذه الفرصة لغزو منطقة طيبه ، فاستولوا على أسوان والفنتين وفيله ، فأرسل ضدهم أغسطس حملة بقيادة بترونيوس ردتهم على أعقابهم وتوغلت فى بلادهم جنوبا حتى نباتا وخربتها تخريبا [٧] .

ومنذ انصرف ملوك دولة الجنوب عن الشمال ، وجهوا اهتمامهم صوب أواسط أفريقية ولا سيما أن النصف الشمالى من السودان يعتبر أفقر أجزاء الوادى على حين أن نصفه الجنوبى عامر بالخيرات ،

---

(١) Lacau, Un graffito d'Abydos écrit en lettres grecs, Etudes de Papyrologie, II, 1934, pp. 229-249.
(٢) Diod. III, 6.
(٣) Budge, op. cit., vol. II, p. 115.
(٤) Bevan, op. cit., pp. 260-1.
(٥) Budge, op. cit., vol. II, p. 166.
(٦) Mac Michael, op. cit., p. 19.
(٧) Budge, op. cit., vol. II, pp. 167-8

(٦)

ففيه مساحات واسعة من الأراضى الزراعية ، ويتسلط على مختلف طرق التجارة ، بما فى ذلك الطرق المؤدية إلى مناجم الذهب فى الصحراء الشرقية والى بلاد الحبشة ، وكذلك لم يكن بعيدا عن أراضى الجزيرة وكردفان التى تفيض بالخير العميم . واذا كان من العسير أن نحدد على وجه الدقة مدى امتداد مملكة الجنوب تجاه أواسط أفريقية ، فانه يستخلص من الأسانيد التاريخية أن ملوك هـذه الدولة كانوا يسيطرون على مديريات حلفا ودنقله وبربر والخرطوم والنيل الأزرق والجزيرة وذلك الجزء الذى يجاورها من النيل الأبيض ، وأن نشاطهم الحربى قد امتد الى مديريات كسلا والبحر الأحمر وكردفان (١) .

وقد بقيت نباتا عاصمة لدولة الجنوب حتى حوالى عام ٣٠٨ق . م . عند ما انقسمت أثيوبيا الى مملكتين ، كانت نباتا عاصمة لاحداهما ومروى عاصمة للأخرى (٢) . وحوالى عام ٢٢٥ ق.م . أفلح ارجامنس ، ملك مروى ، فى توحيد أثيوبيا تحت سلطانه (٣) . واستمرت أثيوبيا موحدة حتى حوالى عام ١٠٠ ق . م . عند ما انقسمت ثانية الى مملكتين لم يعد توحيدهما إلا حوالى عام ٣٢ق.م. (٤) . وفى أواخر القرن الأول للميلاد ، كانت السلطة الحقيقية فى البلاد قد آلت الى زعماء القبائل ، فلا عجب إذن أنه قد إنتاب أثيوبيا الضعف والانحلال ، وغشيتها الفوضى والاضطرابات ، وخرت فريسة سهلة لملك أكسوم (٥) .

وعلى الرغم من انفصال دولة الجنوب عن دولة الشمال سياسيا ، فان دولة الجنوب أى أثيوبيا بقيت من ناحية الحضارة جزءا من مصر ، وعن ذلك يحدثنا ريسنر (٦) فيقول : "لقد كانت أسرة كاشتا القوية لا تزال فى البلاد ، كما كانت هناك طبقة عليا من المصريين ، تتألف من كهنة وكتبة وموظفين وصناع من كل نوع . وفى المعابد التى شيدها التحامسة وخلفاؤهم والرعامسة وبعنخى وطهراقا كانت طقوس مصر لا تزال تقام يوما بعد يوم ، وفقا لما ورد فى لفائف البردى المصرية التى حفظت فى سجلات المعابد ، فكانت أثيوبيا من الناحية الثقافية لا تزال جزءا من مصر" .

وقد ساعد على استمرار الحضارة المصرية أمدا طويلا فى أثيوبيا عاملان : وهما استمرار العلاقات التجارية بين شق الوادى من ناحية ، واستمساك أهل الجنوب بالديانة المصرية من ناحية أخرى ، فقد استمر آمون صاحب المكانة الأولى عندهم ، حتى أن ملوكهم كانوا يتوجون فى معبده الكبير فى نباتا .

---

(١) Reisner, op. cit., vol. II. pp. 60-66.

(٢) Bevan, op. cit., p. 76.

(٣) Bevan, op. cit., p. 244 ; Cf. Griffith, Meroitic Inscriptions, Part II, p. 24.

(٤) Bevan, op. cit., p. 338.

(٥) Mac Michael, op. cit., pp. 18-19 ; Addison, op. cit., p. 35.

(٦) Reisner, op. cit., vol. II, p. 56.

وقد درج ملوك أثيوبيا المتعاقبون على تشييد المعابد للآلهة المصرية المختلفة . ويبدو الأثر المصرى واضحا فى طراز العمارة وزخرفة النقوش فى هذه المعابد[١] .

ولا أدل على استمساك أثيوبيا بالديانة المصرية ، من أنها كانت آخر معاقل الوثنية فى وادى النيل ، فان الديانة المسيحية لم تصبح دينا رسميا هناك إلا فى منتصف القرن السادس الميلادى . وحسبنا دليلا آخر على مظاهر الحضارة المصرية فى أثيوبيا ، أن حفريات العلماء قد كشفت هناك عن خمسين هرما اتخذها ملوك دولة الجنوب وملكاتها قبورا لهم[٢] . وتبدو جليا قوة الصبغة المصرية التى اصطبغت بها أثيوبيا فى أنه على الرغم من اقبال ارجامنس على التعليم الأغريقى ، وعلى الرغم من انفصال أثيوبيا عن مصر سياسيا منذ أربعة قرون ونصف قرن تقريبا إذ ذاك ، فان صبغة القصر والدولة كانت لا تزال فرعونية . فانظر الى بيثن[٣] يقول : " ومع ذلك اذا كان ارجامنس نفسه قد أقبل على الفلسفة الأغريقية ، فان بقايا الآثار تشهد على أن القصر والدولة استمرا فى مظاهرهما على النمط الفرعونى ... وعندما توفى ارجامنس كان مثوى مومياه الأخير هرما بالقرب من مروى . وقد زين هذا الهرم بمناظر مأخوذة من " كتاب الموتى " وفقا للتقاليد المصرية الصحيحة . وقد لوحظ أيضا أن النقوش الهيروغليفية فى مقبرة ارجامنس كانت ذات طابع فرعونى جميل الى حد يبعث على الاعتقاد بأن هذا الملك قد استحضر من مصر صناعا كهنوتيين ...

"وعند "دبود" الحالية ، لا يزال فى الامكان رؤية هيكل شيده ملك أثيوبى آخر يدعى " ازخرامون " (Azechramon) يبدو أنه كان خليفة ارجامنس ، ومن المحتمل أنه كان ابنه . ويبدو هذا الملك فى النقوش الهيروغليفية فرعونا مصريا كاملا ، خلا من كل مظهر نوبى أو دم زنجى ، وينادى بالحق التقليدى لكل فرعون فى أنه ، ملك القطرين ، . . .

وإذا كان الانفصال السياسى بين شطرى الوادى قد حد من الاتصال المباشر بينهما وأضعف أثر الحضارة المصرية فى الجنوب فأخذت تضمحل هناك على مرور الزمن ، فان مصر بقيت على الدوام الطريق الذى تسلكه الحضارة من مراكزها نحو الجنوب . فانه كما انتقلت مصر الى اثيوبيا حضارتها المجيدة ، نقلت اليها كذلك طرفا ولو طفيفا من حضارة الاغريق والرومان[٤] .

وكما وفدت على السودان وثنية مصر ، فقد وفد عليها كذلك الدين الجديد الذى كانت مصر فى مقدمة البلاد التى اعتنقته وأعنى المسيحية . فان المسيحية لم تدخل السودان عن طريق الحبشة وإنما عن طريق مصر ، نتيجة للتعاليم التى كان القديس مارك يبشر بها فى الاسكندرية . وتتضح الصلة الوثيقة بين مسيحيى شمال الوادى وجنوبه من أن مسيحيى الجنوب كانوا من اتباع مذهب

---

(١) Budge, op. cit., vol. II, pp. 116 ff.

(٢) Reisner, op. cit., vol. V. pp. 175 ff.

(٣) Bevan, op. cit., pp. 245-6.

(٤) Mac Michael, op. cit., p. 18.

اليعاقبة الذى كانت له الغلبة فى الشمال . و يبدو أن الاضطهادات التى قاساها المسيحيون فى مصر على أيدى أباطرة الرومان كانت عاملا هاما فى تسرب المسيحية الى السودان ، حيث يظن أن بعض المسيحيين الذين أبوا الارتداد عن دينهم قد راحوا يبحثون عن ملجأ لهم . بيد أن المسيحية لم تصبح دين اثيوبيا الرسمى إلا حوالى منتصف القرن السادس[١] . ولم تكن المسيحية إلا أحد مشاعل الهداية والعرفان التى تلقفها السودان قديما عن مصر ، إذ لم تلبث مصر أن زفت اليه الإسلام بعد ذلك بسبعة قرون[٢] .

ابراهيم نصحى أحمد بدوى

(١) Mac Michael, op. cit., p. 19 ; Budge, op. cit., vol. II, pp. 288 ff.

(٢) Mac Michael, op. cit., p. 20.

obeikandl.com